شاهد عياني في الصعيد الرهبانيّ

انتقاد للاب لويس شيخو اليسوعيّ

كثيرًا ما نقرأ في الجرائد والمجلّات اطراء لعصر النور الذي نحن فيهِ فبفضلهِ كما يزعمون انقشعت سُحب الخرافات عن عقول البشر ولاحت اشعّة العلم الصحيح والحقّ اليقين. لسنا ممّن ينكر مواهب التمدُّن الحديث بل نقرّ انهُ ابرز الى النور كثيرًا من الحقائق التاريخيّة المجهولة ووسّع ثروة العلوم البشريّة كما انهُ ازال الشبهات عن امور ملتبسة طرأ عليها شيء من الغلوّ الدينيّ. لكنّنا ناخذ ايضًا على بعض ارباب العلم الحديث تسرُّعهم الى تزييف اعمال القدماء ونسبتهم الى الكذب كثيرًا مما رووهُ فتجري اقوالهم مجرى اليقين وبزلّتهم يزلُّ كثير من العالمين

في اوائل القرن السابع عشر نشر احد الآباء اليسوعيين اسمهُ روسفيد (H. Rosweyd) مجلّدًا ضخمًا طبعهُ في انتورس سنة ١٦١٥ وضمّنهُ عشرة تآليف من اخصّ ما كتبهُ القدماء عن تاريخ الرهبان في بلاد الصعيد. ثمّ وسّعهُ في طبعة ثانية سنة ١٦٢٨ وذيّلهُ بالحواشي المفيدة. فاقبل القرّاء على مطالعة هذا الكتاب إقبال الصادي الى ينابيع المياه وبهِ تلاشت او خفّت تلك الشكاوى التي وجّهها اعداء الدين الى الرهبانيّات اذ وجدوا في هذا المجموع ما أتى بهِ قدماء الرهبان من الاعمال الجليلة وفيها وصفٌ مدقّق ليس فقط لمناسكهم الدينيّة بل ايضًا لاشغالهم اليوميّة من صناعة وزراعة وانكباب على الدروس وامور غيرها عظّمت الحالة الرهبانيّة في اعين العموم

على انّ بعض المحدثين تصدّوا لهذه التآليف القديمة وادّعوا انّها مصنوعة لا سند لها وانّ اصحابها عاشوا بعد زمن النسّاك بعهد طويل ونسبوا اعمالهم زورًا لمؤرخين قدماء. وبلغ بهم انتقادهم الفاسد الى ان نكروا وجود رؤساء السيّاح كالقديس بولا والقديس انطونيوس الكبير وزعموا انّ تراجم آباء الصعيد خصوصًا ملفّقة خياليّة لا شيء فيها من الصحّة. وكان السابق الى هذه الاقوال الغريبة بعض الالمان والانكليز ولا سيّما ثينغرتن ولوقيوس وفرّار وغرانتكين. لكنّ بعضهم احجموا عن هذه المزاعم لمّا رأوا معرفة مؤلّفيها للامكنة وضبطهم لاوصافها التي لا يمكن تدوينها الّا لشهود عيان. ومع هذا

ارتأوا انَّ اصحابها بالغوا فيها كلَّ المبالغة واقحموا فيها الروايات الضعيفة التي لا يقبلها العقل

تلك كانت حالة الانتقاد الموهوم ريثما ظهر قومٌ من العلماء الاثبات بين الكاثوليك والبروتستان انفسهم فعادوا الى التنقيب والتنقير واخذوا كلَّ عملٍ من هذه الاعمال التاريخيَّة فقابلوا بين نسخها العديدة وتبيَّنوا غثَّها من سمينها ولم يزالوا يفرغون قصوى الجهد في سبيل الحقّ حتى ظهر تحت الرغوة اللبن الصريح . والفضل في ذلك لعلماء مختلفين دينًا وبلادًا منهم زوكلر (Zoeckler) وبروشن (E. Preuschen) والخوري لادوز (Ladeuze) وليبولد (Leipoldt) فانَّهم فنَّدوا اراء الناكرين واثبتوا صحَّة اقوال الرُّواة الاقدمين

ومتن اكتب آخرًا من هذا القبيل ثناء العلم والدين معًا الاب البندكتي الانكليزي دون كوثبرت بُتلر (Dom Cuthbert Butler) الذي خصَّ بدروسه تاريخًا مهمًّا لاحد كتبة اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس يُعدّ تأليفهُ كالحكم الفاصل في هذه الدعوى . نريد احد شهود العين الذي عاش نحو عشرين سنةً بين اولئك النسَّاك وتتلمذ لهم واخذ عنهم وبحث بحثًا نعمًا عن كلّ احوالهم . والمذكور هو بلاديوس الذي وُلد في بلاد غلاطية من اعمال آسية الصغرى نحو سنة ٣٦٣ للمسيح وتفرَّغ للعيشة الرهبانيَّة زاهدًا في الدنيا سنة ٣٨٥ فقضى اعوامًا في النسك قريبًا من بيت المقدس على جبل الزيتون . وبعد ثلاث سنوات احبَّ ان يعاين العجائب المرويَّة عن سيَّاح مصر فرحل اليها وسكن اوَّلًا الرهبان المجاورين للاسكندريَّة ثمَّ توجَّه الى الجنوب متوغلًا في براري الصعيد في اقفار جبل النطرون والاسقيط

وبعد تسع سنين اضطرَّتهُ صحَّتهُ التعيسة ان يعود الى فلسطين سنة ٣٩٩ فاستوطن بيت لحم الى ان وقع عليهِ اختيار اهل بثينية لكرسيّ اسقفيَّة هيلانوبوليس فصار هناك احد أنصار القديس يوحنَّا فم الذهب في وجه مضطهديهِ ونالهُ بسببهِ محنٌ شتَّى ثمَّ أُلقي في الحبس فقاسى الشدائد احد عشر شهرًا ثمَّ نُفي فانتهز هذه الفرصة ليعود الى صعيد مصر فيذوق ثانيةً لذَّات الزهد ويتمتَّع بنعمة التعبُّد لخالقهِ بين اخيار البشر فواصل ذلك ستَّ سنوات . ثمَّ عاد الى بلادهِ سنة ٤١٢ ونُقل الى كرسيّ أسيوط الاسقفي في غلاطية وبقي فيهِ الى سنة وفاته نحو ٤٣٠

هذه خلاصة ترجمة پلاديوس . ولعلَّهُ كان مات وخمل ذكرهُ وتلاشت بهِ معلوماتهُ عن السيَّاح الذين عرفهم حقّ المعرفة وسكن بينهم طويلًا لولا كبير حجّاب الملك تاودوسيوس الثاني يُدعى لوزوس (Lauzus) الذي صادق پلاديوسَ الاسقف وسمع غير مرَّة من فيهِ العجائب التي عاينها بين فئات الرهبان في فلسطين وخصوصاً في الصعيد فألحَّ عليهِ الحاجب بان يسطِّر اخبار اولئك الزهَّاد فاجابهُ پلاديوس الى سؤلهِ وكتب باليونانيَّة التاريخ المطلوب قسَّمهُ على عدَّة فصول فكان تأليفهِ اصدق واثبت ما ورد عن اولئك العبَّاد

وقد نال هذا العمل من الشهرة ما أدَّى الى توفير نسخهِ ورُبَّما تداولتهُ ايدي النساخ فسختهُ . ومنهم من زاد عليهِ ما بلغهُ بالسماع او ادخل فيهِ ما قرأهُ في غيرهِ من الكتب المجانسة لهُ ولا سيما بعد ان نُقل الى لغات شتَّى كاللاتينيَّة والقبطيَّة والارمنيَّة والسريانيَّة والعربيَّة (راجع المشرق ٧ : ١٠٦٨ ع ٤٨) . حتى يصعب على المنتقدين ان يعرفوا ما صدر مكتوباً بقلم پلاديوس في الاصل وما أُضيف اليهِ من بعدهِ

وقد توفَّق الى بلوغ هذه الغاية الاب بُتلر في كتابين جعل الاوَّل كمقدِّمة على الثاني ففي الاوَّل بحث عن كلّ التآليف التي تصان في خزائن المخاطر الاوربيَّة ومدارها على عيشة قدماء رهبان الصعيد ثمَّ اوقف نظرهُ في تاريخ پلاديوس فتفحص تفحُّصاً وتعيَّن نسخة من نسخهِ التي وجدها في مكاتب الغرب وفي جبلَي أتوس وسينا وفي اورشليم واماكن غيرها . فبعد المقابلات الطويلة والنظر المدقَّق والاستعانة باقوال المؤرخين الذين عاشوا في زمن پلاديوس او بعده بقليل كسوزومين والقديس ابيفانيوس والقديس ايرونيموس تمكَّن من استخراج النصّ الاصليّ فنشرهُ في الكتاب الثاني الذي تمَّ بعد الاوَّل بستّ سنوات قضاها المؤلف اتابهُ الله في التفتيش والبحث . ومن راجع هذا المتن بعد تمحيصهِ وجدهُ كافياً لمجد اولياء الله الذين شرَّفوا بلاد الصعيد بمبرَّاتهم المتعدِّدة ومساعيهم المشكورة وخوارقهم العجيبة التي دوَّنها پلاديوس كما رآها بنفسهِ او سمعها ممَّن عاينوها وكلهم رجال ثقة لا يُشكّ في رواياتهم (١

(١) وهذا اسم الكتاب بالانكليزيَّة :

DOM CUTHBERT BUTLER : **The Lausiac History of Palladius.** ***Texts and Studies,*** **Contributions to biblical and patristic literature, edited by J. A. Robinson, D. D., *Cambridge, at the University Press.*vol. VI, n^os^ 1 et 2, 1898 et 1004. In-8, XIV-293 et CIV-278**

*

هلُمَّ بنا نذكر شيئاً مما افادنا اياهُ صاحب تاريخ رهبان الصعيد عن اولئك النساك الذي تألَّهوا بالعبادة والاعمال الصالحة لكنَّنا نضرب الصفح عن كثير مما سبق حضرة الاب ميشال جوليان فاختصرهُ في مقالتين نشرهما في المشرق (٤: ٥٧٧ و ٦٥٣ ثم ٦: ١١٥ الخ) وقد وصف فيهما اديار مصر القديمة ولا سيما اديار القديس باخوميوس في الصعيد التي زار آثارها وذكر اقوال الكتبة الأثبات في صددها

١ ﴿ عدد الرهبان ﴾ واوَّل ما يُستفاد من تاريخ پلاديوس عدد الرهبان المتنسكين في زمانهِ . فانَّ جهات مصر عموماً والصعيد خصوصاً كانت أضحت حافلةً بالمستعمرات الرهبانية حتى ان عدد الاديار المذكورة في هذا التاريخ وفي كتابات ذلك العصر يربي على الثلاثين . وكان بعض هذه الدِّيَرة يحتوي الفاً من الرهبان بنيَّف فان دير التبني مثلاً كان يسكنهُ ١٣٠٠ راهب . وكان عدد الرهبان الذين يتبعون قانون القديس باخوميوس وحدهُ ٧٠٠٠ عابد وكان يسكن جبل النطرون ٥٠٠٠ غيرهم . وزد على ذلك اديرةً كانت مختصةً بالرواهب وحدهنَّ يبلغ عددهنَّ الألوف وكان في انطينوبوليس وارباضها ١٢ ديراً للمتبتلات . ويشير پلاديوس الى اديرة فلسطين والعراق وما بين النهرين وكان عدد نسَّاكها كما في مصر . فكأنَّ نصارى ذلك العهد كانوا يشعرون بدافع عظيم يسوقهم الى سكنى البراري والقفار فقطنوها وقدَّسوها بحياتهم الالهية . وربَّما كان وجودهم سبباً لانشاء مُدنٍ كبيرة عمروها أوَّلاً كمناسك لهم ثمَّ تحوَّلت بعدئذٍ الى بلاد عامرة تدلُّ اسماؤها الى اليوم على أصلها . وعلى هذا المثال في بلاد الشام دير الزور ودير عطيَّة

٢ ﴿ مناسكهم ﴾ لم يعش هؤلاء الرهبان عُمَّالاً بل كانت سيرتهم منظَّمة يقضون حياتهم بالشغل والاعمال الصالحة تحت نظر احد الآباء العريقين بالعيشة النسكية المتأسين على آدابها منذ الزمن القديم . وكان الذين سبقوا الى الترهب كبولا وانطونيوس ومكاريوس وهيلاريون متوحدين عائشين في الزهد منقطعين عن العالم لا يشاؤون البتَّة الاختلاط باهله يقسمون وقتهم بين الصلاة وشغل اليدين . لكنَّ عرف فضائلهم ما لبث ان انتشر في النواحي المجاورة فجعل الناس يتوارِدون اليهم ثم تتلمذوا لهم وانتسوا

باشالهم . وكان اذا زاد عددهم انقسموا كشَوْل النحل فعمروا منسكاً جديداً تحت قيادة احد شيوخ الرهبان

على انَّ هذه العيشة وان كانت بنظام وترتيب لم يكن لاصحابها قانون يجرون عليهِ في كلّ اوقاتهم حتى شعر الشيوخ بالحاجة الى وضع قانون معلوم يسير بموجبهِ الذين يطلبون الترهب . فمن ذلك قانون القديس انطونيوس وقانون القديس باخوميوس وقوانين أُخرى منها عموميَّة ومنها خاصَّة ببعض الامكنة . وعلى مثال هذه القوانين كتب القديس باسيليوس قانونهُ الشهير في بلاد بنطوس والقديس مبارك في ايطالية

وكان القادمون الى هذه الاديرة اذا اتوها كضيوف يسكنون في منازل خاصَّة خارجاً عن سور الدير فاذا لم يرحلوا بعد ثمانية أيام دعوهم الى شغل اما عقليّ امَّا يدوي فراراً من البطالة . امَّا اذا اتوا طالبين الترهب فكانوا يكلمون بامرهم الى احد النظَّار قبل ان يضمُّوهم الى جماعة الرهبان فيروِّضهم الناظر في كافَّة اعمال النسك ويختبرهم بضروب الاختبارات ليستحن دعوتهم ويدرّبهم على الفضائل الرهبانيَّة فيدوم ذلك ثلاث سنوات يُمتَحَنون من بعدها في عداد الاخوة ان وجدوهم اهلاً بذلك

وكان للاخوة في الأديرة القانونيَّة لبس واحد وطعام واحد . فكان لبسهم من جلود الماعز او الوبر في نهارهم وفي ليلهم درعاً من الكتَّان ويجعلون على رؤوسهم في الرتب الدينيَّة قبعة تُعرف بالاسكيم يجعلون على مقدَّمها صليباً احمر . اما مساكنهم فكانت القلالي يبيتون فيها ثلاثة ثلاثة وفي القلاية ثلاث دكك لطيفة من الحجر بالحناء خفيف كانوا يضطجعون عليها بلا فراش . وكان مأكلهم في مطاعم عموميَّة يجتمع فيها الاخوة كلُّهم وكانوا لا يأكلون سوى الخبز والبقول والالبان اللهمَّ الَّا العَجَزَة بينهم او المرضى فيطعمون لحماً . وكان كثير منهم لا يأكلون الَّا مرَّة واحدة في اليوم عند غروب الشمس وكان منهم من يطوي صائماً اليومين واكثر . وكانوا يدفنون موتاهم في قبور منقورة في الصخور تُرى الى عهدنا . وربَّما اتخذوا لذلك مدافن قدماء المصريين في اطواف الجبال . وامَّا النساء فكانت اخواتهنَّ يسجينَّ في الاكفان ويجعلنهنَّ على ضفَّة النيل فيأتي الاخوة وينقلون الجثَّة الى المدافن العموميَّة

٣ ﴿ اشغالهم ﴾ كثيراً ما يتخيَّل الناس ان العيشة الرهبانيَّة عيشة راحة لا يتكلَّف اصحابها عناء . وكفى بالردّ على هذا القول ما اخبر بهِ پلاديوس عن رهبان

الصعيد الذين عاش بينهم ورأى اعمالهم . وكان اوّل لشغالهم اقامة فرائضهم الدينيّة في ساعات معلومة من النهار والليل يجتمعون فيها لتلاوة المزامير وصلوات اخرى طويلة ويترنّمون بالتسابيح . وكان مجمل هذه الصلوات في ايّام الاعياد ٣٩ صلاةً يقتسمونها اربعة اقسام

وكانوا اذا فرغوا من الصلاة يسرعون الى الشغل والشغل هذا فرض لازب على قدر قوى كلّ راهب وعلى حسب استعداده . فكان بينهم قومٌ للتعليم والارشادات التقويّة وملازمة الدروس الدينيّة كالعلّامة ايثريوس والشيخ امونيوس وديديموس المكفوف احد علماء الاسكندريّة . وكان غيرهم يصرفون وقتهم في نسخ المخطوطات فاكتسبوا بذلك شكر العلماء اذ حفظوا لنا من الضياع عددًا لا يُحصى من المخطوطات التي وفّروا نسخها . وكان غيرهم يُعنَون بتمريض الاعلّاء . واكثر منهم من يشتغل بالاعمال اليدويّة كنسج الحصر واصطناع القفف والسلال وحياكة الثياب . وبعضهم كان موكلًا برعية المواشي وتربية الخنازير يبيعونها دون ان يمسّوا لحومها . والآخرون كانوا يهتمّون بالزراعة على كلّ فنونها ويُعنَون خصوصًا بالنخل لكثرة منافعه . ومنّن وجده بلّاديوس من الصنّعة في ديرپانوپوليس (حيث كان عدد الرهبان ثلاثمائة) خمسة عشر خيّاطًا وسبعة حدّادين واربعة نجّارين واثني عشر جمّالًا وخمسة عشر قصّارًا . فناهيك بهذه الامثلة شاهدًا على شغل اولئك الرهبان الذين عدّوا الشغل كشقيق للصلاة . امّا الذي كانوا يكسبونهُ من الأُجرة في مبيع هذه الاعمال فكانوا يصرفونهُ في حاجات اهل الدير وما فضل عن ذلك كانوا يتصدّقون بهِ على الفقراء والمساكين او يصرفونهُ في الاعمال الخيريّة

٤ ﴿ فضائلهم ﴾ لو اردنا الاتساع في هذا الموضوع لأدى بنا الى الطول الممل وما يُقال اجمالًا أن سيرة اولئك الرهبان كانت بالارواح اشبه منها بالبشر . اذ كانوا يمارسون لسمى الفضائل التي تحبّبهم الى الله وتقرّبهم من الكمال السرمدي . وقد تتبّع بلاديوس في كتابهِ اعمال كثير من هؤلاء المتنسكين فوصفهم احسن وصف دون مبالغة في ما روى وهو لا يخاف ان وجد فيهم ضعفًا بشريًا ان يذكرهُ كما عرفهُ . وكان اكثرهم اذا زهدوا في الدنيا يبدأون بمحاربة الاميال البدنيّة والاهواء الجسديّة فيعاملون الجسد معاملة العدوّ الالد . فهذا يقمعهُ بالصوم الطويل وشظف العيش وذاك

يحرمهُ من النوم او ينام غرارًا او واقفًا مسندًا رأسهُ الى حائط دون اضطجاع . ومنهم من كان يشتغل الاشغال الشاقّة من بناء وحراثة ونقل الاثقال وكان غيرهم يتعرّضون في النهار للسع الزنابير او يتقلّبون بين الاشواك والدغل الى غير ذلك من التقشفات الغريبة التي كانوا يضاعفونها اذا ما ازعجتهم وساوس الشيطان

وكان اولياء الله اذا ما قهروا اجسادهم وذلّلوا اهواءهم المنحرفة ينكبّون على الفضائل التي تزيدهم حظوى الى الله عزّ وجلّ من اتضاع وتقيّ وتفانٍ في خدمة القريب وسدّ حاجاتهِ واصلاح طباعهِ السيّئة وتعليمهِ طريق الخلاص . وكان غيرهم يتردّدون مع الله ويتنعّمون في مناجاتهِ دون انقطاع . وقد ارتدَّ على يد هؤلاء النسّاك كثيرون الى الايمان المسيحي بعد ان كانوا يعيشون كالهمج في عبادة الاصنام منهم في النوبة وفي بلاد برقة وليبية وبلاد السودان . وكثيرًا ما منحهم الله اصطناع القوّات والعجائب من شفاء المرضى واخراج الشياطين من المسكونين . ومنهم من كان يوحي اليهِ الله خفايا القلوب او يريهِ ما يجري في بلاد بعيدة كديديموس الذي بعد ان صلّى يومًا الى الربّ زمنًا طويلًا ليكفّ عن كنيستهِ يد يوليان الجاحد غلب عليهِ النعاس فرأى في نومهِ خيلًا عليها فرسان سمعهم يقولون : « بشّروا ديديموس بموت يليان فانهُ نال جزاءهُ اليوم . . . ثمّ يا ديديموس وافطر بعد صومك واكتب الى اثناسيوس بما جرى » . فبعد أيّام وردت اخبار كسرة الامبراطور يليان في المدائن

هذه وامور اخرى كثيرة اودعها پلاديوس في تاريخهِ كما شاهدها وسمعها دون تصنّع ولا زخرفة كلام حتّى ان تيلمون المؤرخ الشهير قال في حقّهِ : « أنّنا لا نعرف في التواريخ القديمة كتبًا كثيرة تلوح الحقيقة من خلال سطورها كهذا فان صاحبها مولعٌ بالصدق واليقين لا يروي امرًا الّا بعد أن تحقّق صحّتهُ بنفسهِ او بحث عن رواتهِ الثقات لئلّا ينخدع بما يروي او يخدع قرّاءهُ » . قلنا وهذه الطبعة الجديدة التي نحن في صددها قد زادت الكتاب قيمةً اذ جرّدتهُ عمّا كان أضيف اليهِ من الروايات غير الاصليّة وصفّت ماءهُ الزلال من كلّ تكدير